المحـــور الثانـى
وفـــرة العلم

العلم تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم ووراثهم ،وهو حياة القلوب ونور البصائر ،وشفاء الصدور،ورياض القلوب،ولذة الأرواح،وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين ، وهو الميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين ، والغى والرشاد، والهدى والضلال ، به يعرف الله ويُعبد ويُذكر ويُشكر ، ويُحمد ويُمجد،وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون ، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام ، ويتميز الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، وبه تعرف مراضى الحق سبحانه .

العلم إمام والعمل مأموم،وهو قائد والعمل تابع ، وهو الصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة ،والأنيس فى الوحشة،والكاشف عن الشبهة ، والغنى الذى لا فقر على من ظفر بكنزه،والكنف الذى لا ضيعة على من أوى إلى حرزه .

مذاكرته تسبيح،والبحث عنه جهاد ،وطلبه قربة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام،والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام ، قال الإمام أحمد رضي الله عنه : « الناس إلى العلـم أحـوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين،وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه».

وروى عـن الشـافعى رضي الله عنه أنه قال:« طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» وقال ابن وهب:كنت بين يدى مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحى وقمت أصلى فقال : « ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه ».

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو « التوحيد » ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته فقال سبحانه : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران :١٨] وفى ضمن ذلك تعديلهم، فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح، ومن هاهنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف :« حمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين » (١) .

والعلم حجة الله فى أرضه، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ، ويكفى فى شرفه أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتظلهم بها ، وأن العالم يستغفر له من فى السموات ومن الأرض حتى الحيتان فى البحر ، وحتى النمل فى جُحرهَا، وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

وليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية ، والعلم بما فرض الله عز وجل أن يتبع إنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة ﷺ ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وهذا لا يدرك إلا بكثرة الرواية ، يكون تأويله نورا يودعه الله فى قلب من أحب من عباده لقول النبى ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » وقد دعا عليه السلام لابن العباس فقال :« اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

فالعلماء هم الذين يتدبرون القرآن، يتلونه عن تدبر ينتهى إلى إدراك وتأثر وإلى عمل ينتفع به. وينظرون فيما خلق الله من شىء ، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية : يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقية إبداعه، ومن ثم يخشونه حق خشيته، ويتقونه حق تقاته، ويعبدونه حقا بالمعرفة الدقيقة و العلم المباشر ، يعلمون أن الله على كل شىء قدير، فلا يشركون به شيئا ، يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويحفظون وصيته، ويوقنون أنهم ملاقوه، وأنهم إليه راجعون فيحاسبهم بعلمهم، فهم يخشون الرحمن بالغيب ، ويرغبون فيما رغب الله فيه ، ويزهدون فيما زهد الله فيه ، فانتفعوا بعلمهم لأنهم عملوا به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم .

(١) انظر : إحياء علوم الدين فى كتاب العلم .

والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علما وعملا ،ولم يضمن نصر الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه محق ، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال ، قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٩] فللعبد من العلو والعزة بحسب ما معه من الإيمان ، فإذا فاته من العلو والعزة ففى مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علما وعملا ظاهرا وباطنا (١) .

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون:٨] وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه،فإذا ضعف الإيمان ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه،وكذلك الكفاية والحسب هما بقدر الإيمان،وكذلك ولاية الله ومعيته الخاصة،والنصر والتأييد الكامل إنما هما على قدر إيمان العبد بالله تعالى:

وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم.

واعلم - ألهمك الله رشده - أن محبة الله سبحانه والأنس به والشوق إلى لقائه،والرضى به وعنه أصل الدين وأساس العلم،وأصل أعمالهما ،كما أن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها، فمعرفته سبحانه أجل المعارف،وإرادة وجهه أجل المقاصد،وعبادته أشرف الأعمال،والثناء عليه بأسمائه وصفاته،ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال،وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم (٢) .

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه،وهربت منه ، والله سبحانه كلما خفته أنست به ، وفررت إليه،والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه،والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر:٢٨] .

وكذلك محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهى عذاب للمحب ووبال عليه ، وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم ، وما يحصل للمحب بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة (٣) وأما محبة الله فإنها نعيم النفوس وحياة

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٠٨ .
(٣) المرجع السابق ٢/ ٢١٠ .

الأرواح ، وقوت القلوب ، ونور العقل ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن . واعلم الناس وأصحهم عقلا ورأيا واستحسانا من كان عقله ورأيه واستحسانه موافقا للسنة لقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». وقد قال الله عز وعلا : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سبأ :٦] وقال مجاهد :« أفضل العبادة الرأى الحسن وهو اتباع السنة » .

وكان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول ﷺ فى مسائل العلم الخبرية وأهل مسائل الأحكام العلمية يسمونهم : « أهل الشبهات والأهواء » لأن الرأى المخالف للسنة جهل لا علم ،وهوى لا دين فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ،وغايته الضلال فى الدنيا والشقاء فى الآخرة ، وإنما ينتفى الضلال والشقاء عمن اتبع هدى الله الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣، ١٢٤] (١) .

ومن أجل هذا كله كان العلم خير من المال فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعالم حاكم والمال محكوم عليه والعلم فى قلبك والمال فى يدك تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق وينمو .

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه :« العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العلم ثلم فى الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خَلَفٌ منه » (٢) . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه موت رواته ، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن أحدا لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها » وقال الحسن رحمه الله : « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يرجح مداد العلماء بدم الشهداء » .

---

(١) إغاثة اللهفان٢/ ١٤٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٣ .

وقال بعض الحكماء : « من اتخذ الحكمة لجاما ، اتخذه الناسُ إماماً ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار ».

ومن وصايا لقمان لابنه : « يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء » (١) .

فالأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد فى أكنافها التلف

وروى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعا أن النبى ﷺ قال : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » (٢) .

وقال ابن مسعود يوما لابن أخيه : يابن أخى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ، قال : « لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم » (٣) .

فالعلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب ، لأن شرفه يثمر على صاحبه ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٣] فنهى أن يكون غير العاقل يعقل عنه أمرا ، أو يفهم عنه زجرا .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : « يا بنى تعملوا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطا سُدْتُمْ ، وإن كنتم سوقة عِشتم » ، وقال بعض الأدباء : «العلم أفضل خَلَفٍ ، والعمل به أكمل شرف ».

وقال على بن أبى طلب رضي الله عنه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » فأخذه الخليل أحمد الفراهيدى فنظمه شعرا فقال :

لا يكون العلى مثل الدنى ولا ذو الذكاء مثل الغبى

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٤ .
(٢) الترمذى .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١/ ٢٥ .

قيمة المرء ما يحسن المر ء قضاء من الإمام على

وليس يجهل فضل العالم إلا أهل الجهل ،لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم، فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله وفضل أصحابه فصاروا لهم أعداء (١) .

قال الشاعر :

وقيمة المرء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فقم بعلم ولا تبغ به بدلا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو بكر بن دريد :

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذلك يعادى العلم من هو جاهله

وصدق القائل حين قال :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

ويأتى فى مقدمة الجهال : المبتدعة وأهل التأويل الفاسد ، والأهواء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : تلا رسول الله ﷺ ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ إلى ﴿ **أُوْلُوا الأَلْبَاب** ﴾ [آل عمران : ٧] فقال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه أولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » (٢) فمنشأ الضلال وفرق الضلال إذن اتباع المتشابه وترك المحكم الذى لا يختلف فى فهمه الراسخون فى العلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه أن رسول الله ﷺ قال : « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ،وباغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرئ بغير

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٤ .
(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى .

حق ليهرق دمه » (١) .

وقال سفيان بن عيينة : « من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه » (٢) .

فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم المجادلين المتكلفين، فالتكلف ليس من شيم المرسلين والصالحين، ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا إلى علم يكون إنفاق وقتك فيه مبرورا، وكد فكرك فيه مشكورا ، وقد قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ » (٣) ونحن نستعيذ بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا ، ونجهل نفع إحسانه إلينا ، وقد قيل « من الفراغ تكون الصبوة » وقال بعض البلغاء : « من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أداه ، أو مجد أثله ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه أو علم اقتبسه ، فقد عق يومه ، وظلم نفسه » .

وقال بعض الشعراء :

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ

لذا وجب على المرء التواق إلى العبقرية الخالدة أن يصرف للعلم حظا من زمانه ، فليس كل الزمان زمان اكتساب ، ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ، ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغا إلى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص ، قال رجل لأبى هريرة رضي الله عنه : « أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة » .

وليس - وإن تفاضلت الأذهان وتفاوتت الفطن - ينبغى لمن قل حظه أن ييأس من نيل القليل ، وإدراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة إلى أدنى مراتب التخصيص ، فإن الماء يؤثر فى صم الصخور ، فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى

(١) البخارى .
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٣١ .
(٣) البخارى .

نفس راغب شهى ، وطالب خلى ، لا سيما وطالب العلم معان، قال النبى ﷺ: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب » (١) .

قد روى عن النبى ﷺ : « إذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم ».

فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا ، ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ، ولمن طلبه أن يكون مستكثرا ، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ، ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة، ويمنيها بانقطاع الأشغال المتصلة ،فإن لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا .

كما ينبغى له أن يطلب العلم واثقا بتيسير الله ، قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة ، وعزيمة صادقة ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال :« من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده فى النار » وقال أيضا : « تعلموا العلم قبل أن يرفع ، ورفعه ذهاب أهله ، فإن أحدكم لا يدرى متى يحتاج إليه ومتى يحتاج إلى ما عنده » (٢) .

فتعلم العلمَ لا لتمارى به السفهاء ،ولا لتجادل به العلماء ، ولكن لتفيد وتستفيد ، قال الأوزاعى رحمه الله : «إذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنَعهم العمل » والمُمَارى هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ، ولا يرجو أن يتعلم منه أحد .

وأعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها،ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها فإن العلم مرتبط ببعض،ولكل باب منه تعلق بما قبله،ولأن البناء على غير أساس لا يبنى،والتمر من غير غرس لا يجنى .

فمن أوائل العلم طلبه ابتغاء وجه الله لا لمال أو شهرة أو سلطان . والإقبال عليه فى الصغر،فالتعلم فى الصغر كالنقش على الحجر،وفى الكبر كالكتابة على

(١) انظر : أدب الدنيا والدين .

(٢) أدب الدنيا والدين ص٤٠ .

الماء لأن الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر بذلا وأكثر تواضعا، ومتى توفرت هذه الشروط فى الكبير كان أكثر حفظا من الصغير ، لأن الكبير أكثر عقلا من الصغير. وقيل فى منثور الحكم: « المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء» (١). فينبغى للسالك ألا ينى فى طلبه، وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سنح، وضن بما منح، وألا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فإن لكل علم فضولا مذهلة ، وشذورا مشغلة إذا صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها قال ابن عباس: "العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شىء أحسنه » فاصرف نفسك ـ تولى الله رشدك ـ إلى العلم النافع :وما العلم النافع ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « العلم علمان : فعلم فى القلب ، فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم » (٢) . والربانيون والعباقرة يستهدفون العلم كله ، واستهدافهم لعلم القلب ، والعلم الذى به صلاح القلوب أكثر فأكثر .والعلامة الكبرى للعلم النافع محصلته خشية الله عز وجل ، فقد حصر الله عز وجل العلم بأهل الخشية فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر :٢٨] . فمن لم تكن له خشية من الله عز وجل فإنما هو من علماء الدنيا ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

فالعلم النافع ينبسط فى الصدر شعاعه ، ويكشف عن القلب قناعه ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر :٢٢] . وقال النبى ﷺ : « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح ، قالوا : فهل لذلك أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » (٣) .

فالعلم الذى ينمى عندنا الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور ويذكرنا بالآخرة وبالموت . هو سيد العلم فى الإسلام، وذلك بالتأكيد هو علم القرآن والسنة وعلم تزكية الأنفس . وعلم التلاوة والأذكار والشكر ، فذلك تعليم

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٦ .
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة والخطيب .
(٣) أخرجه ابن جرير والحاكم .

رسول الله ﷺ قال الله جل وعلا : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة : ١٥١، ١٥٢] .

فيا أيها السالك: ابحث عن العلم النافع، وفر إلى علم الله بك إذا ادلهمت عليك الأمور، وإياك أن تغفل عن الله فلازم الذكر والإقبال على الله فى كل حال. والعلم النافع هو علم الدين لأن الناس بمعرفته يرشدون ، وبجهله يضلون ، إذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها أداءها ، ولم يعلم شروط إجزائها ، فلزم علم الدين كل مكلف لقول النبى ﷺ :« فضل العلم خير من فضل العبادة » و« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له ، والتأدب بين يديه ، فهذا هو العلم الذى ينبسط فى الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام .

قال سفيان الثورى : « إنما يتعلم العلم ليتقى به الله ، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به ، فإن اختل هذا المقصد، وفسدت نية طالبه بأن استشعر به التوصل إلى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره ، وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا » (١) قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] إنه القرآن العظيم المنزل بصيرة وتبصرا وهدى وشفاء ، ورحمة ، وهدى وموعظة للمتقين، وشفاء للمؤمنين . فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذى يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وإن لم يستعمل فهو دواء له بالقوة كذلك الهدى . والقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به وبالقوة لمن لم يهتد به . فإنما يهتدى به ويرحم ، وبه يتعظ المتقون الموقنون . . . فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا كما فى الأثر: « من لم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا وإنما سمى القرآن هدى لأن من شأنه أن يهدى » (٢) .

بالقرآن إذن والعمل به يحصل الهدى ، وبالهدى يحصل الخشوع .

---

(١)مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين ص ١٦١ .

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٨٢ .

إذن علم من العلوم وهو علم مرتبط بعلوم القلب الإيمانية ،وقد كاد هذا العلم أن يموت،ومن الواجب إحياؤه . روى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال له:«اقرأ»، قلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال :« إنى أحب أن أسمعه من غيرى» ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال:« حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان (١) . هذا هو حال الأنبياء والعارفين البكاء إذا قرؤوا القرآن أو سمعوه . وهذا حال ضعف فى عصرنا كثيرا .

وعن عبد الرحمن بن عوف أنه أتى بطعام وكان صائما،فقال : قتل مصعب ابن عمير،وهو خير منى،وكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه ، وقتل حمزة وهو خير منى ، فلم يوجد ما يكفن به إلا بردة،ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال:أعطينا من الدنيا ما أعطينا،وقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام(٢).

الأخذ من كل نوع من العلم:

بعد صرف الاهتمام إلى معرفة علم الدين ، ينبغى العناية بباقى العلوم والأخذ بأحسنها ، لأن لكل علم أثر فى النفس . يقول الإمام الشافعى رضي الله عنه :«من تعلم القرآن عظمت قيمته،ومن تعلم الفقه نبل قدره،ومن تعلم الحديث قويت حجته ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم اللغة رق طبعه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » .

وقال يحيى بن خالد لابنه :« عليك بكل نوع من العلم فخذ منه ، فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدو شىء من العلم » وأنشد :

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فأنت عدو للذى أنت جاهل له ولعلم أنت تتقنه سلم

(١) للشيخين الترمذى وأبى داود .
(٢) للبخارى .

فالسالك طريق العبقرية يطبع نفسه بالقراءة ليل نهار ، وتلخيص مضامين الكتب القيمة ، فى دفتر يوليه بالغ العناية والاهتمام لأنه أعظم مرجع يرجع إليه . يطبع نفسه بالقراءة ويهواها لأن عنده حياة واحدة فى هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا تكفيه ولا تحرك كل ما فى ضميره من بواعث الحركة والواجبات أكثر بكثير من الأوقات ، فيا حسرة على العباد ،والقراءة دون غيرها هى التى تعطى الإنسان أكثر من حياة واحدة فى مدى عمره الواحد ، فهى تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وإن كانت تطيلها بمقادير الحساب :

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى

يقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح :« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » وبالعلم النافع يدرك الإنسان المزايا الثلاث (١) .

ينبغى أن نقبل على الكتب ونحبها فهى غذاء العقول ،وسلامة العقول تعنى سلامة النفس،فالروح السليمة فى العقل السليم ،ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة ،ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد ، ومهما ينتقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ،ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل وتتضاعف الصورة بين مرآتين (٢).

لذا كان من الواجب التنويع فى قراءة الكتب والأخذ من كل فن بطرف ، وأخذ العلم من أمهات الكتب - أعنى مصادرها - ثم من مراجعها .

ومما لا شك فيه أن سحر السماء،وروعة الأرض وجمال النبت وبهاء الزهرة، وخرير الماء ، وحفيف الرياح،وعنف العاصفة،وضياء الشمس،ولمعان القمر، وائتلاف النجوم . . . كل ذلك وغيره استخراج لمواهب الإنسان من مكامنها ليعبر

(١) المقصود بالمزايا الثلاث : الأولى يعطى أكثر من حياة فى الدنيا والثانية الصدقة الجارية والثالثة الولد الصالح عن طريق العصب أو النسب العلمى الدينى .

(٢) كتاب « أنا » للعقاد ص ١٠٧ وما بعدها .

بها عن هذا الذى يحس به من جمال أو روعة أو انبهار إزاء مظاهر الطبيعة ، والفضل لله تعالى فى هذا كله،القائل فى محكم تنزيله : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [يونس :١٠١] ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

إن الطاقة المعبرة عند الإنسان تستمر مع استمرار الحياة ، فلا يستغنى عنها فى يوم ما لأنه لا يملك ذلك،لا يملك إلا أن يعبر تلقائيا عن جمال ما يرى ،وما يحس وما يتذوق ، وعما يهزه من مظاهر الطبيعة .

واعْلَمْ أن التعمير قد يكون بطول الأجل وعد الأعوام شريطة أن يكون العبد ممن طال عمره وحسن عمله ، كما يكون بالبركة فى الحركات والسكنات والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقا مثمرا ، واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار .

وكذلك يكون نقص العمر بقصره فى عد السنين أو نزع البركة من الحركات والسكنات ، وإنفاقه فى اللهو والعبث والكسل والفراغ القاتل ، وهذا ليس من دأب الراسخين فى العلم .

ورب ساعة تعدل عمرا بما تحتشد فيها من أفكار ومشاعر ، وبما يتم فيها من أعمال وآثار ، ورب عام خَاوٍ فارغ لا حساب له فى ميزان الحياة ولا وزن له عند الله تعالى ، وصدق الشاعر عمر الخيام حين قال :

أحس فى نفسى دبيب الفناء ولم أصب فى العيش إلا الشقاء
يا حسرتا إن حان حينى ولم يتح لفكرى حل لغز القضاء
تروح أيامى ولا تغتدى كما تهب الريح فى الفدفد
وما طويت النفس هما على يومين : أمس المنقضى والغد

فاجتهد تولى الله رشدك فى طلب العلم الحق،فالعلم الحق هو المعرفة،هو إدراك الحق،هو تفتح البصيرة ،هو الاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود ، وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التى تزاحِم الذهن ولا تؤدى إلى حقائق

الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .

هذا هو الطريق إلى الحياة السعيدة ، والعلم الحقيقى والمعرفة المستنيرة : إنها حساسية القلب والتطلع إلى رحمة الله وفضله،ومن ثم يدرك اللب ويعرف وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب ، وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة . فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة والمشاهدات الظاهرة فليسوا من علماء الآخرة إنما هم جامعوا معلومات وليسوا بالعلماء .

فاللهم ارزقنا قلوبا واعية متفتحة مدركة لما وراء الظواهر من حقائق،منتفعة بما ترى وتعلم، تذكر الله فى كل شىء تراه وتلمسه ولا تنساه ولا تنسى يوم لقاه ، واجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

شروط القراءة الصحيحة :

واعلم رعاك الله أن القراءة فن لا يولع به إلا سائد ، وهو اصطفاء للمقروء، لا يصبر عليه إلا أصحاب الطبائع السليمة ممن فطروا على التنقيب ، وإجابة دعاء حب الاطلاع . . . وفرق كبير بين من يزاول العمل حيثما اتفق ، وبين من يزاوله كفنان ، وليس فن القراءة يوزن بكثرتها ، ولكن بدقتها ، ولا بطول وقتها ، ولكن بقيمتها ، فهناك من يقرأ صفحة قراءة فنية ، فتدر عليه من الفائدة ما لا تدره قراءة ألف صفحة .

إن أهم شروط القراءة الصحيحة أن تكون مزدانة بالتركيز والادكار . يسائل القارئ فيها نفسه بعد كل فصل : ماذا يريد الكتاب ؟ وهل أخطأ أو أصاب ؟ وفيم أخطأ وفيم أصاب ؟ وإذا كان قد أخطأ فما صواب ما أخطأ فيه ؟

إن قراءة كتاب على هذا النهج خير من قراءة الكتب الكثيرة قراءة مضطربة لا عمق فيها ، وهذه القراءة تستلزم أن يهب القارئ عقله كله ، ونفسه كلها لما يقرأه، فلا يشغله شاغل آخر فقديما قالوا :« إن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك » (١) .

(١) أحمد أمين (فيض الخاطر) بتصرف .

فلابد لاكتساب العلم من المجاهدة والصبر وسهر الليالى،وكان أبو يزيد يقول:«عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت »(١) .

وبما أن القراءة توزن بدقتها لا بكثرتها،وبقيمتها لا بطول وقتها فإن مقام العبقرية يجمع لصاحبه دقائق العلم والإيمان والعمل،فقد يكون عمل العبقرى كعمل غيره،وأحيانا يكون عمل العبقرى أقل من عمل غيره،فما الذى جعله عبقريا ؟ المرجع فى النهاية إلى القلب فى قضية الإيمان،ومرجعه إلى القلب فى الأحوال التى ترافق الأعمال ، إنها دقائق قلبية عقلية ينبغى أن يفطن إليها الإنسان وهو يتعلم أو يعمل،فينبغى أن يتحرر من جميع المعوقات،كما ينبغى أن يلتزم بالآداب والمحفزات ،ليحيا القلب بالحكمة ،ويتغذى العقل والفكر بغذاء العلم النافع .

فالعلم بلا روية ولا إيمان يجنح بالعقل الى الإلحاد ، والعلم مع الإيمان خليق أن يعود بالمرء إلى الهدى المستقيم ، وإذا ثقلت الوساوس والشكوك على الصدر فإما أن يخرج الإنسان بسببها صديقا أو زنديقا . وقال العارفون : إن مما يداوى به هذا الحال الإكثار من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] فالنفس تحتاج إلى حسن سياسة فأحيانا تمل،وأحيانا تنقطع ، وعلى صاحبها أن يعرف كيف يسوسها . ولكل شىء شرة ، ولكل شرة فترة، فاللهم اجعل فترتها لله ولرسوله حتى نكون من الفائزين عندك .

فألزم نفسك آداب الشريعة ينور الله قلبك بنور المعرفة ، وعلم نفسك طريق الحق يُسهل الله عليك سلوكه.وألزم نفسك قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن ، وقيام الليل ،والتضرع عند السحر،ومجالسة الصالحين،ولا تضيع فرائض الله

(١) مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين ص ١٢ .

فيبتليك الله بتضييع السنن ، ولا تحقرن سنة رسول الله ﷺ فيبتليك الله بالبدع ، ولا تسرف فى الحلال فإنك إذا استَوْعَبْتَ الحلال كله تاقت نفسك إلى الحرام، ولا تطلب دقيق العلوم حتى تعرف بجملة أحكام العبودية منها ، لا تعدل عن جلى الأحكام إلى غامضها فتخدع بهواك ، ولا تقدم على أمر حتى تعلم حكم الله فيه، فقد كان صحابة رسول الله ﷺ إذا عرض على أحدهم أمر يقول : « حتى أؤامرَ ربى » . هذا أدبهم الذى علمهم إياه رسول الله ﷺ ، فعلينا أن نعتاد أن لا نقدم على أمر قبل أن نرجع إلى الله عز وجل فيه مع ملاحظة أن الفرائض المتعينة لا تحتاج إلى استخارة أو استشارة .

فما من مسلم يقيم الفرائض ويجتنب المحرمات إلا وهو فى الطريق إلى الله،وقد تمر على المسلم غفلة أو قصور أو تقصير ثم ينتبه،وعلى قدر انتباهه يبدأ التوجه إلى الله،وبقدر ما يكون صادقا فى توجهه إلى الله فهو إلى الخير . وفى ابتداء هذا التوجه قد لا يكون هناك وضوح عند السائر إلى الله فيما ينبغى فعله ، أو قد يقع فى أسر جهل،أو أسر أهل بدعة،أو يغلب عليه حال يفسد عمله ، وإنما يستقيم أمر المتجه إلى الله بالمنهج العلمى والعملى القائم على الكتاب والسنة ، وبما أحال عليه الكتاب والسنة من إجماع وقياس واستنباط من أهله فمن فاته معرفة ذلك فاته جزء من الهدى .

الطرق الموصلة إلى وفرة العلم:

أ- الحزم والعزم :

أناس كثيرون ينقلبون خير منقلب ، من تهافت إلى تماسك ، من فتور إلى نشاط ، من خور إلى عزيمة ماضية ، من نكوص إلى إقدام ، من مخلوقات مفتتنة إلى أفراد من البشر يمتازون بالجرأة والصلابة . ما سر هذا التحول ؟! إنه الحزم والعزم .

فالحازم يعيش دائما لغاية وهدف ، فلا يسعه إلا أن يمضى قدما ، فيعيد النظر فى حياته العاطفية ،وينأى عن الموثرات الفاسدة المنحطة ، ويقضى عمله

اليومى بأسلوب عاقل نبيه ، يمتاز بحسن التدبير ، والحزم والحسم ، فيضيف المرونة إلى الطبع ، والليونة إلى الفكر ، والقدرة على التمييز بين الصالح والطالح، والغث والسمين . كل هذا يرسم الصورة الأكمل للهدف الأشمل الذى يفتح العين والذهن والقلب نحو التأمل المسترسل فى آفاق مسترسلة ، فيرى المرء ما لا يراه غيره ، ويكتنه ما لا يكتنه سواه .

وهل كان الإنسان يبلغ ما بلغ من رقى فى الهواء،وهبوط فوق القمر لولا حزمه وولعه؟فمتى كان المرء حازما استطاع أن يستغل إمكانياته فيوسع منها، والتحليل الذى قام به علماء النفس يثبت أن الذى يتذمر من عجزه عن إخضاع نفسه هو من صنف المخلوقات التى تدور حول نفسها حتى يصيبها الدوار ويحل بها البوار . والذى لا يعبأ بالأخطاء يقع فى الأخطاء،والخطأ المكرر دلالة على الفشل، وبرهان على قلة الانتباه ،بل على هزيمة الانتباه . والانتباه الإرادى وقاية وحماية، وقديما قال سليمان بن عبد الملك - أو غيره من بيت أهله « مالمت نفسى على فوت أمر بدأته بحزم ، ولا حمدتها على درك أمر بدأته بعجز » (١) .

بهذه الحقيقة تكتشف النفس المعانى ، فإن الحياة إن خلت من حركة التغيير فقدت مغزاها ، وحركة التغيير إن انحرفت عن حدود حقائق الفطرة أخطأت هدف المسير ، وهدف المسير إن لم تستعن على بلوغه بما وراء المعادلات العقلية من منح التوكل طال دربك ، وتبدد من جهدك الكثير ، وإنما تظهر ملامح العبقرية بالصبر والمثابرة ،والجد والعمل الدائب .

إن العبقرى بمجرد قبوله الانخراط فى سلك العبقرية فقد اختار طريقة التعب ، وطلق الراحة والدعة واللهو المباح ، لقد أوجب الفاروق عمر رضي الله عنه على نفسه ألا ينام حذرا من أن تشتبه الظنون بعزماتها،فيحسبها الجاهل شطحات راقد، وحين وصل معاوية بن خديج المدينة ظهرا مبشرا أمير المؤمنين بفتح الإسكندرية مال إلى المسجد ظانا أن عمر فى قيلولة ، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه فقال له :

وماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟

---

(١) أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع .

قلت : إن أمير المؤمنين قائل .

قال: بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟ (١) .

وهى كذلك والله ، فأنى للسالك كثرة النوم والراحة ؟

إن نام أو استراح بالنهار ضيع علمه وناشئته ومستقبله ، وإن نام آخر الليل ضيع نفسه . ولذلك لما قيل لأحد السلف : « ما الذى ينقض العزم ؟ قال : طول الآمال وحب الراحات » (٢) .

وقال ابن القيم رحمه الله فى قوم وفقهم الله تعالى فشغلهم بالجد : « وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها والغم من خوف ذهابها، فاستلانوا مما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون » (٣) .

وإذا ما ألقينا نظرة على الناجحين ، نعلم أنهم لم ينجحوا دون سعى ، وأن العقبات التى كانت فى طريقهم أكثر من أن تحصى ، وأن الهزائم التى منوا بها لم تثنهم عن عزمهم فهم يصارعون الحواجز بأساليب متعددة متطورة حتى ينتصروا .

ومن يَتَهَيَّبْ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

فالكسل الروحى مرده إلى طعنة فى النفس،علاجها يكمن فى دعم الحيوية ليستعيد الفكر نشاطه،والنظر سداده،فينظر الإنسان إلى وجوده نظرة تفاؤل،وإلى الخليقة كلها نظرة استبشار وابتهاج . وبذلك يبدأ شيئا فشيئا باقتحام آفاق جديدة من آفاق المعرفة،ويتوطد إيمانه بكل ما أوجده الله سبحانه من القيم الروحية والمعنوية .

فقد تستن لحياتك نظاما،وتضع لها منهاجا،فتسعى إلى تنفيذ ما تخطط،فتجد

---

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد .
(٢) تاريخ بغداد ٤/ ١٢ .
(٣) الفوائد ١٩٤ .

العراقيل شتى ، وأشدها خطرا ما يقطع نشاطك وأنت ماض فى التنفيذ ، فتبعثر وقتك ، وتفتت جهودك ، فيختل النظام .

فإذا أنت لم تحصر انتباهك فى التنفيذ ولم تحسن مراقبة الذات أصبحت صريع الجمود الذهنى ، والأهواء المتصادمة ، فيضيع الوقت ، وتصبح مع مرور الأيام الإنسان السلبى .

وكل إهمال من هذا القبيل يولد النكبات ، فالمسمار إذا أهملت غرسه فى الحذاء يضيع الحذاء . والحدوة إن لم تثبتها فى الحافر يضيع الحصان ، ويضيع ممتطى الحصان الذى هو أنت .

فلا تكن إذن سلبيا،ولكن وطد العزم بصدق وإيمان على توجيه إرادتك وامتلاك ذاتك وبناء طبعك بناء جديدا،ولا تتذرع بالأعذار ، بل ارفضها وانبذها نبذ النواة .ولا تقل:«لا أقدر،لا أستطيع» فتلك كلمة واهية ، ولا تقل : إن الظروف غير مواتية بل افرض ما تريد بإخلاص ، واضرب عرض الحائط المؤثرات الخارجية التى تصرفك عن غايتك بمغرياتها وآلامها .

فإياك أن تتهاون فى طلب العلم ، فإن الذين يتقاعسون عن القيام بواجباتهم يصيبهم الندم من بعد، ناهيك عن الكسالى الغافلين .

إن متعة الصبا والشباب فى الكد والتحصيل لا لذة أحسن منها ، وإلا فأين نقضى أيامنا وزهرة عمرنا إن لم يكن العلم والثقافة مبتغانا ؟

إن أولئك الذين فاتهم قطار المعرفة والتحصيل لا علم نافع يبصرهم بالحياة ولا تجارب يستعينون بها على مجابهة الصعاب ، فاحذر أن تكون أحدهم .

ب ـ الحاسة الاستفهامية :

كثيرة هى المفاهيم التى أصلها رسول الله ﷺ إلى أصحابه عن طريق السؤال أولا ،حتى إذا سئلوا أعملوا فكرهم محاولين التوصل إلى الإجابة ، فإما أجابوا ، وإما عجزوا ، ويكونون حينئذ قد تلقوا درسا فى ضرورة التفكير الشخصى ، والاستقلال العقلى فى الفهم والاستنباط ، ثم يقرهم على جوابهم أو يصحح لهم

بإجابته ﷺ . ونماذج هذا الأسلوب كثيرة جدا منها قوله ﷺ :

أترون ما العضة؟ نقل الحديث من بعض الناس إلى بعض ليفسدوا بينهم [١].

أتدرون ما الغيبة ؟ [٢] .

أتدرون من المفلس ؟ [٣] .

أتدرون ما هذان الكاتبان ؟ [٤] مشيرا بيمينه ويساره .

هل تدرون ما الكوثر ؟ [٥] .

يا أبا ذر أترى أن كثرة المال هو الغنى ؟ [٦] .

إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية المبنية على السؤال والجواب .

ومعلوم أن رسول الله ﷺ كان يراعى الخصائص الذاتية والمواهب الشخصية لكل فرد من الصحابة ، فيكونهم بما يناسب مواهبهم وشخصياتهم على اختلافها، ولذلك كان جوابه يختلف كلما سئل : « أى الأعمال أفضل ؟» مراعيا بذلك حال السائل وطبيعته ، فيجيبه مرة : « أفضل الأعمال إلى الله الإيمان بالله وحده ثم الجهاد » [٧] إلى آخر الحديث .وكذلك :«أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك سرورا » [٨] ، ويجيب مرة أخرى :« أفضل الأعمال الصلاة فى وقتها » [٩] .

فالحاسة الاستفهامية السليمة تنتج عقلا علميا سليما، وشخصا ممنهجا يصعب أن تتسرب إليه الخرافة والأفكار الوهمية والغيبية التواكلية،ذلك أن استفادة المفاهيم

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد .
(٢، ٣) رواهما مسلم .
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم .
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه النسائى وابن حبان وصححه الألبانى .
(٧) رواه الطبرانى وابن حبان وأحمد وغيره .
(٨) حسنه الألبانى فى (ص ، ج ، ص) ١٠٩٦ .
(٩) حسنه الألبانى فى (ص ، ج ، ص) ١٠٩٣ .

من نصوص الشرع نفسه - أثناء التكوين والتربية - تكسب الفرد منهجية تحليلية نقدية ، ومقاييس علمية لقبول الأفكار أو ردها ،وملكة خاصة لمعرفة المقاصد العامة للشرع يرجع إليها كل ما يتلقاه من كلام أو يقرؤه من توجيه أو تخطيط فيدع المخالف ، ويقبل الموافق ، فعقل مثل هذا ، عقل سليم مسدد يصعب أن تتسرب إليه الخرافة أو الوهم أو الفهوم المنحرفة لأنه محصن بحاسة استفهامية لا تقبل بالأحاديث الموضوعة،وتميز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة ، كما ترفض ترويج الإشاعات ذات الطبيعة الأسطورية والأقوال الشاذة .

إن عقلية كهذه بمواهبها الذاتية ومؤهلاتها الفطرية تسد الخلات وتملأ الثغرات، وتشبع الحاجات فى الإطار العلمى أو الدعوى أو الإصلاحى فدعامة الإنسان ـ بعد الله تعالى ـ عقله ،وبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعت قول الله تعالى على لسان الفجار : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : « ما استودع الله أحدا عقلا إلا استنقذه به يوما ما » . ولذلك حين ضرب الحجاج أعناق أسرى ، فلما قدموا إليه رجلا لتضرب عنقه قال : « والله لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو » فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أما كان فيها ، أحد يحسن مثل هذا الكلام ؟ وأمسك عن القتل (١) .

وقدموا رجلا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه ، ودخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلم وهو يبكى ، فهم عبد الملك بالمعلم فقال له الخارجى:«دعوه يبكى فإنه أفتح لحلقه، وأصح لبصره وأهذب لصوته » قال له عبد الملك:أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ قال الخارجى : « ما ينبغى لمسلم أن يشغله عن قول الحق شىء فأمر بتخلية سبيله » (٢) .

من أجل هذا كان خير المواهب العقل،وشر المصائب الجهل،إذ بالعقل تعرف حقائق الأمور،ويفصل بين الحسنات والسيئات،وبه يمتاز الإنسان على سائر الحيوان ،

(١) ذكره الجاحظ .

(٢) أدب الدنيا والدين ص١١ .

فإذا تم فى الإنسان سمى عاقلا، وخرج به إلى حد الكمال . وأحسن القائل حين قال :

يعيش الفتى بالعقل فى الناس إنه على العقل يجرى علمه وتجاربه
إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه

فالحاسة الاستفهامية هى نهاية المعرفة، وصحة السياسة ، وإصابة الفكرة ووضع الشيء فى موضعه ، فهى تنمو إذا استعملت ، وتنقص إذا أهملت ، ونماؤها بالخبرة وصحة الروية وصدق الفراسة وممارسة الأمور ، والأيام لا تدع جاهلا إلا أدبته ، وكفى بالتجارب تأدبيا ، وبتقلب الأيام عظة .

الحاسة الاستفهامية تنمو نمو العقل بالعلم الغزير ، كالذى يكون فى العلماء من وفور العقل وجودة الرأى وفرط الذكاء وحسن الفطنة وجودة الحدس ولذلك قال العلماء : آية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم .

فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز وإن أعضل : قيل لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم ؟ فقال : « كما يرزقهم على كثرة عددهم».

وقيل له : كم بين السماء والأرض ؟ قال :« دعوة مستجابة ».

وقيل له : كم بين المشرق والمغرب ؟ قال : «مسيرة يوم للشمس » .

وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد ؟ فقال :« أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان ».

وسئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هل كان الصحابة يضحكون ؟ فقال : «نعم وإيمانهم أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى» (١) .

وسأل معاوية بن أبى سفيان سعد بن أبى وقاص عن حياده فيما وقع بينه وبين على بن أبى طالب فقال : « ما كنت لأقاتل رجلا قال فيه رسول الله ﷺ

(١) القرطبى - انظر : شهد المحراب ٨٥ .

« أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

وحكى عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ، فقال الرجل : أجهل من قومى قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال: ٣٢] ولم يقولوا : « إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه . فسكت معاوية .

ووقع ذباب على وجه المنصور فذبه فعاد حتى أضجره ، وكان عنده جعفر بن محمد فى ذلك الوقت فقال له المنصور: يا أبا عبد الله لم خلق الله الذباب ؟ قال: ليذل به الجبابرة . فسكت المنصور .

وقيل لمحمد بن الحنفية : كيف يدفع بك أبوك فى الحروب ويبخل بالحسن والحسين ؟ فكان يقول : أنا يمينه وهما عيناه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه .

وسأل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق فقال:«كيف قلتم نحن ذرية رسول الله ﷺ وأنتم بنو على،وإنما ينسب الرجل إلى جده لأبيه دون جده لأمه ؟ فقال الكاظم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الأنعام :٨٤، ٨٥] وليس لعيسى أب وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه ، وكذلك ألحقنا بذرية النبى ﷺ من قبل أمنا فاطمة .

وقيل لمحمد بن سوقة : تحج وعليك دين ؟ قال : هو أقضى للدين . واشترى صفوان بن محرز بدنة بتسعة دنانير ، فقيل له : أتشترى بدنة بتسعة دنانير وليس عندك غيرها ؟ قال سمعت الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ [الحج :٣٦] .

ودخل بعض النساك على صاحبه وهو يكيد نفسه ،فقال: طب نفسا فإنك تلقى ربا رحيما ، قال: أما ذنوبى فإنى أرجو الله أن يغفرها لى، وليس اغتمامى إلا لمن أدع بناتى ؟ قال له صاحبه: الذى ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجه لحفظ بناتك.

وقارف الزهرى ذنبا فاستوحش من الناس وهام على وجهه، وكان الناس يعزونه فقال له زيد بن على: يا زهرى لقنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء أشد عليك من ذنبك، فقال الزهرى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾[الأنعام :١٢٤] .

ويحكى أن إبليس قال لعيسى ابن مريم عليه السلام: ألست تقول : إنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك ؟ قال : نعم ،قال : فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم ، فقال له: يا ملعون ، إن لله أن يختبر عباده وليس لعبد أن يختبر ربه .

وروى أن هرقل كتب إلى رسول الله ﷺ : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبى ﷺ :« سبحان الله إذا جاء الليل فأين يذهب النهار ؟ » (١).

وسأل رجل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال ﷺ :«ماذا أعددت لها؟» فهذه الأجوبة كلها من ثمرة العقل الذى به عرف الله سبحانه وأسماؤه وصفات كماله ، ونعوت جلاله .وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه فنالوا سعادة الدنيا والآخرة .

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه :« لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتمارا، ولكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم وخشعت له جوارحهم ففاقوا الناس بطيب المنزلة ، وعلو الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، لكنه الذى يعرف خير الشرين» (٢) .

وقال وهب بن منبه : قرأت فى بعض ما أنزل الله تعالى : « إن الشيطان لم يكايد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل ، وإنه ليسوق مائة مؤمن جاهل فيستجرهم

(١) الحديث أخرجه أحمد وهو قوله ﷺ :« سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار » .
(٢) روضة المحبين .

حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء ، ويكايد المؤمن العاقل فيصعب عليه فلا ينال منه شيئا من حاجته ، قال : وإزالة الجبل صخرة صخرة أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل . . . وإن الرجلين ليستويان فى البر ويكون ما بينهما فى الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل،وما عبد الله بشىء أفضل من العقل»(١) . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : « لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوب بعدد الرمل كان وشيكا بالنجاة والتخلص منها ، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل لكان وشيكا أن لا يسلم له منها مثقال ذرة » قيل: وكيف ذلك ؟ قال :« إن العاقل إذا زل تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذى رزقه ، والجاهل بمنزلة الذى يبنى ويهدم ، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله » وقال بعض الحكماء : « من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه وهلاكه فى أحب الأشياء إليه »(٢) ولقد أحسن القائل حين قال :

ما وهب الله لامرئ هبـة أحسن من عقله ومن أدبـه
هما جمال الفتى فإن فقدا ففقـده للحياة أجمل بـه

وفرة العلم تجعل لكل سؤال جواب :

فعليك - تولى الله رشدك - بكثرة الدرس وإدامة النظر والحفظ ، فالعرب تقول : حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك .

وقالوا : لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ولا يعبر بك النادى .

وقال الشافعى رحمه الله :

علمى معى حيثما يممت يتبعنى
قلبى وعـاء له لا بطن صنـدوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

لا تعتمد على الحفظ دائما إنما قيده بالكتابة فإن آفة الإنسان النسيان . وقد

(١، ٢) روضة المحبين .

روى أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « قيدوا العلم بالكتاب » .

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدى :« اجعل ما فى الكتاب رأس مالك ، واجعل ما فى قلبك النفقة » وقال بعض البلغاء : « إن هذه الآداب نوافر تند عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة ، والأقلام لها رعاة » (١) .

وللجواب على كل سؤال ينبغى العناية بثلاثة أشياء بالغة الأهمية :

الأول : العلم بكتاب الله وسنة ورسوله ﷺ :

فالعلم بهما يفتح للسالك آفاق واسعة الأرجاء فلا يتهرب من السؤال كيفما كان نوعه ، وأحسن من قال :

لا تكن للأمور هيوبا فإلى خيبة يصير الهيوب

لأن القرآن نفسه أجاب على جميع الأسئلة المطروحة على رسول الله ﷺ أو التى يمكن أن تطرح عليه ، اقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ**﴾ [طه: ١٠٥] ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ**﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ**﴾ [الكهف: ٨٣] ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٢٠] ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ** ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾ [الإسراء: ٨٥] فكان الجواب شافيا كافيا ، والحجة مقنعة ، ولنضرب أمثلة أخرى :

قال الله تعالى :﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا**﴾ [القصص:٥٧] قال ابن عباس: قائل هذا الكلام من قريش وهو الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشى: قال للنبى ﷺ:« إنا لنعلم أن قولك حق،ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا - يعنى من مكة - لاجتماعهم على خلافنا،ولا طاقة لنا بهم،وكان هذا من تعللاتهم فأجابهم الله تعالى عما اعتلوا به فقال: ﴿**أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[القصص:٥٧] يعنى كنتم آمنين فى حرمى، تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إن عبدتمونى ، وآمنتم بى ؟ وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة

(١) أدب الدنيا والدين ص٤٠ .

آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر سبحانه أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم » (١) .

كما أفحم القرآن الكريم تساؤلات المبطلين وادعاءاتهم فى أجوبة موجزة من أمثلتها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة : ١٨] .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] إنه جواب قاطع ، ذلك أن مشركى قريش تعجبوا من كرامة الله لعبيدهم ـ بالأمس ـ وقد أكرمهم بالإسلام والحرية ، فأجابهم الله تعالى بأنه مولى الشاكرين ، وقاهر الجبابرة . ورد سبحانه على الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] فآكل الطعام من طبعه النقصان وليس الكمال ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:١٢٤] أجابهم الله بقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام :١٢٤] .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨ ـ ١٥٠] ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ أجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٥] فكان الجواب حاسما: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة :٦٥، ٦٦]

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى سورة القصص الآية : ٥٧ .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فكان الجواب : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١] .

ومن الناس من لا يستحق الجواب على سؤاله وأفعاله فجزاؤه الإعراض: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء : ٦٣] .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء : ٨١] والأمثلة كثيرة.

وكذلك العالم بالسنة النبوية لا يعجزه سؤال بإذن الله تعالى ،لأنها والقرآن نوران ربانيان فى قلب العبد الربانى ، فهذا عبد الله بن عباس يُسأل عن المتشابه فى القرآن فيجيب .

يروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فقال له : إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف على ـ ومعلوم أن الاختلاف منشؤه أحد أمرين : ضعف فى اللغة العربية واستعمالاتها ، أو جهل بمقاصد الشريعة أو هما معا .

قال الأزرق: قوله تعالى: ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤٢] ﴿ واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام :٢٣] فقد كتموا فى هذه الآية . وفى قوله تعالى : ﴿السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات:٢٧ ـ ٣٢] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١١] فذكر فى هذه الآية خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٣] ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦] ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء :

٥٨] فكأنه تعالى كان ثم مضى .

فقال عبد الله بن العباس مجيبا :

﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُم ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فى النفخة الأولى ينفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم فى النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧]

وأما قوله تعالى : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فقال المشركون : تعالوا نقول ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فختم على أفواههم ، فتنطق أيديهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يُكتم حديثا، وعنده ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢].

وخلق الأرض فى يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين ، ثم دحا الأرض أى أخرج الماء والمرعى ، وخلق الجبال والآكام وما بينهما فى يومين ، فخلقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام وخلقت السماء فى يومين .

﴿ وَكَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣] سمى نفسه ذلك ، وذلك قوله ، أى لم أزل كذلك ، فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله (١) .

إن الجهل بأسباب التنزيل يوقع الجاهلين به فى الإشكال والاختلاف، ويوضح هذا المعنى ما رواه أبو عبيدة عن إبراهيم التيمى قال : « خلا عمر بن الخطاب ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن قرأناه وعلمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا ،فإذا اختلفوا اقتتلوا ، قال : فزجره عمر وانتهره ، فانصرف ابن عباس ، ونظر فيما قال فعرفه ، فأرسل إليه ، فقال : أعد على ما قلت فأعاده عليه ، فعرف عمر قوله وأعجبه (٢) . فجمع القرآن والعلمُ به حصانة

(١، ٢) انظر : كتاب الموافقات للشاطبى .

ربانية ، ووقاية من التقول على الله بغير علم وبدون برهان ، لأن الإفتاء بغير علم كذب على الله ورسوله ، وفى هذا الباب جاء من التشديد فى القول بالرأى فى القرآن ما جاء ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ [النحل : ١١٦] .

ثم انظر إلى عبد الله بن عباس ـ حبر هذه الأمة ـ الذى طالما روع الخوارج بمنطقه الصارم العادل :

سألهم ابن عباس : ماذا تنقمون من على بن أبى طالب . . . ؟

قالوا : ننقم منه ثلاثا :

أولاً : أنه حكم الرجال فى دين الله ، والله يقول :﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [يوسف :٦٧]

والثانية : أنه قاتل ثم لم يأخذ من مقاتليه سبيا ولا غنائم ، فلئن كانوا كفارا فقد حلت له أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماؤهم .

والثالثة : رضى عند التحكيم أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين استجابة لأعدائه ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

وأخذ ابن عباس يفند أهواءهم فقال :

أما قولكم: إنه حكم الرجال فى دين الله فأى بأس . . . ؟ إن الله يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُم** ﴾ [المائدة : ٩٥] فنبئونى بالله أتحكيم الرجال فى حقن دماء المسلمين أحق وأولى أم تحكيمهم فى أرنب ثمنها ربع درهم ؟!

وتلعثم زعماء الخوارج تحت وطأة هذا المنطق الحاسم الساخر .

واستأنف حبر الأمة حديثه قائلا : وأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فهل كنتم تريدون أن يأخذ عائشة زوج الرسول ﷺ وأم المؤمنين سبيا ، ويأخذ أسلابها غنائم ؟؟!

وهناك كست وجوههم صفرة الخجل .

وانتقل ابن عباس إلى الثالثة : وأما قولكم : إنه رضى أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين حتى يتم التحكيم فاسمعوا ما فعله رسول الله ﷺ يوم الحديبية إذ راح يملى الكتاب الذى يقوم بينه وبين قريش، قال للكاتب : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال مبعوث قريش : والله لو كنا نعرف أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك،فاكتب:هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله ، فقال لهم الرسول ﷺ :والله إنى لرسول الله وإن كذبتم،ثم قال لكاتب الصحفية اكتب ما يشاؤون ،اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله .

واستمر الحوار بين ابن عباس والخوارج على هذا النسق الباهر السار المعجز ، وما كاد ينتهى النقاش حتى نهض منهم الكثير معلنين اقتناعهم ، وخروجهم من خصومة على رضى الله عنه وأرضاه .

الله أكبر لا يجد الحل للمعضلات إلا العباقرة ،فطوبى لمن استشار بالعالم فيما ينويه، واستفسره فيما أشكل له، واسترشده فيما يأتيه عملا بقوله جل وعلا: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩] .

يحكى أن طبيبا نصرانيا للرشيد ناظر الإمام الواقدى ذات يوم فقال له: « إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله ، وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١] ، فقال الواقدى :لفظة من تكون للتبعيض ، قد تأتى لابتداء الغاية كما فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما فى السموات وما فى الأرض جزءاً منه فانقطع النصرانى وأسلم ، وفرح الرشيد بذلك فرحا شديدا ، ووصل الواقدى بصلة عظيمة (١) .

ويروى أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال ذلك الطبيب لأحد العلماء : ليس فى كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان فقال له العالم :« قد جمع الله تعالى الطب كله فى نصف آية من

(١) تفسير أبى السعود نقلا عن صفوة التفاسير .

كتابه » قال:وما هى ؟ قال : قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:٣١] فقال النصرانى : « ولا يؤثر عن رسولكم شىء فى الطب » فقال العالم : « قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة » قال : وما هى ؟ قال : قوله: « ما ملأ ابن آدم وعاءا شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» الحديث فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (١) .

للجواب على كل سؤال ينبغى ـ بعد ـ العلم بكتاب الله وسنه رسوله ﷺ .

الثانى : الأخذ من كل علم بطرف :

وأعنى علم الدنيا والدين ،فيظفر بنصيب وافر بعلوم القرآن والسنة النبوية ليحسن الاستنباط ،وبعلوم التاريخ والجغرافية،والعلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وغيرها ، وقد سبق الحديث فى هذا الباب .

الثالث : قوله إذا سئل عن شىء لا علم له به : لا أدرى :

ومن قال : لا أدرى علمه الله ما لا يدرى .

فانظر ـ تولى الله رشدك ـ إلى الملائكة وهم أشرف خلق الله تعالى أنهم أجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله به ، ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به كما يفعله بعض الجهال منا فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] .

والواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم :الله أعلم ولا أدرى اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء،وسأل عمر بن الخطاب رجلا عن شىء فقال : الله أعلم فقال عمر : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم ، إذا سئل أحدكم عن شىء لا يعلمه فليقل : لا أدرى أو لا علم لى .

روى البستى فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أى البقاع شر ؟ قال:« لا أدرى حتى أسأل جبريل » فسأل جبريل فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ، فجاء فقال : «خير البقاع المساجد وشرها الأسواق» .

(١) محاسن التأويل .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما أدرى أعزير نبى أم لا ؟ وما أدرى أتبع ملعون أم لا ؟ وما أدرى أذو القرنين نبى أم لا » (١) .

وحسبك من ذلك ما نقل عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : وقد سئل عن شيء فى القرآن :« أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم به » وفى رواية « إذا قلت فى كتاب الله برأيى » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه » (٢) .

وسأل رجل عبد الله بن عباس عن « يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقال : له ابن عباس: فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثنى ، فقال ابن عباس : « هما يومان ذكرهما الله فى كتابه ، الله أعلم بهما نكره أن نقول فى كتاب الله ما لا نعلم » (٣) .

وقال أبو بكر للجدة فى قضية الميراث : ارجعى حتى أسأل الناس .

وكان على بن أبى طالب يقول :« وا أبردها على الكبد » ثلاث مرات ، قالوا وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول:الله أعلم (٤) وسأل عبد الله بن عمر رجل فقال : لا علم لى بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر سئل عما لا يعلم فقال : لا علم لى به (٥) .

وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن شيء من القرآن قال:« أنا لا أقول فى القرآن شيئا وسل عنه من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه ـ يعنى عكرمة » وقال ابن سيرين : سألت عبيدة عن شيء من القرآن فقال :« اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن » .

---

(١) الحديث صححه الحاكم وأخرجه أبو داود .
(٢ ، ٣) انظر : الموافقات للشاطبى .
(٤) الجامع لأحكام القرآن .
(٥) ذكره الدارمى فى مسنده .

وعن مسروق قال : « اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله » .

وعن إبراهيم قال : « كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه » (١) .

وذكر الهيثم بن جميل قال :« شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى » (٢) .

وإنما هذا كله توق وتحرز أن يقع الناظر فيه فى الرأى المذموم وأن يقول من غير تثبيت، قال الإمام الشاطبى رحمه الله:« والحقيقة أن الناظر والمفسر إذا لم يكن على بال وعلم فترك النظر فى القرآن واعتمد فى ذلك على من تقدمه ، ووكل إليه النظر فيه غير ملوم . . .وإن كان على بال وعلم فليتثبت أن يسأله الله تعالى : من أين قلت عنى هذا فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد » (٣) .

وقد عاب الله تعالى على المتقولين عن أهل الكهف رجما بالغيب أى ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن، ورجم الظنون التى لا تغنى من الحق شيئا : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾ [الكهف : ٢٢] ولذلك أبطل كلامهم هذا ثم أرجع الأمر إليه سبحانه وأثبت العلم الكامل لذاته فقال: ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيل** ﴾ [الكهف :٢٢] ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الكهف :٢٦] .

وصدق يزيد بن الوليد بن عبد الملك عندما قال :

إذا ما تحدثت فى مجلس تناهى حديثى إلى ما علمت
ولم أعد علمى إلى غيره وكان إذا ما تناهى سكت

ورحم الله أمرأً عرف قدره .

وقال زيادة بن زيد :

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده أطال فأملى أم تناهى فاقصرا
ويخبرنى عن غائب المرء فعله كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

(١-٣) انظر : الموافقات .

وقال الفقمى :

وقد كنت مجرور اللسان ومفحما فأصبحت أدرى اليوم كيف أقول

وقال عمر بن هبيرة :

اللهم إنى أعوذ بك من طول الغفلة وإفراط الفطنة ، اللهم لا تجعل قولى فوق عملى ولا تجعل أسوأ عملى ما قارب أجلى .

وقال كعب بن سعد الغنوى :

وإن لسان المرء ما لم يكن له حَصَاةٌ على عوراته لدليل (١)

فرحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه اعتتب وأناب ورجع من قريب (٢) .

(١) انظر : البيان والتبيين .

(٢) الكلام للحسن البصرى انظر : نفس المصدر .

obeikandl.com